المحاضرة الثانية

تاريـــخ المؤسسات الوثائقية

(المكتبات العربية الاسلامية)

تمهيد :

تعد المكتبات العربية الإسلامية نتاجا طبيعيا للحضارة الإسلامية وإنعكاسا لها وقد ساهمت في توسيع نطاق الحضارة والحفاظ عليها ونقلها إلى الأجيال المسلمة وعندما إتسع أفق المسلمين العقلي وإزدهرت حضارتهم وتنوعت إهتماماتهم الفكرية زاد عدد المكتبات وتنوعت أغراضها حتى شملت جميع الأنواع التي تؤسس المكتبات من أجلها ولهذا فقد عرفت الحضارة الإسلامية مختلف أنواع المكتبات.

1. تطور المكتبات الإسلامية :

أولا يجب الإشارة إلى ان العرب قبل الإسلام عاشوا في شبه الجزيرة العربية أحقابا طويلة وهو في شبه عزلة عن العالم رغم إتصالاتهم المحدودة مع الروم والفرس والأحباش عن طريق التجارة ، وبشكل عام كانت حياتهم بدوية متنقلة ، أمّا علومهم فكانت تتناسب ومتطلبات حياتهم ولم يهتم العرب قبل الإسلام بالتدوين فقد إعتمدوا على الذاكرة في حفظ ونقل إنتاجهم الفكري و بالتالي لا يمكن الحديث عن شيء إسمه مكتبة عند العرب قبل الإسلام بالرغم من أن منهم من عرف الكتابة على عظام الحيوانات وللبعض النخيل والحجارة.

أ- مرحلة صدر الإسلام :

كانت الكتابة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم منتشرة أكثر مما هي عليه في الجاهلية فالوحي يحتاج إلى كتاب وكذلك أمور الدولة من مراسلات وعهود ومواثيق فكان للرسول صلى الله عليه وسلم كتاب للوحي بلغ عددهم أربعون كاتبا. واخرون للصدقة وللمداينات والمعاملات وكتاب الرسائل يكتبون بلغات مختلفة. ففي عصر النبي صلى الله عليه وسلم والراشدون من بعده لم يكن لدى العرب المسلمين نصوص مكتوبة غير كتاب الله والذي كان الأساس فيه غالبا الحفظ للكتابة.

وهذا طبعا بإستثناء ما كان في كتاباته صلى الله عليه وسلم إلى الملوك وأمره كذلك بأن يقيدوا له في ديوان أسماء من أسلم والذي عرف فيما بعد بالديوان العمري وصار يرجع إليه في معرفة أنساب القوم وسوابقهم في الإسلام ومنها أقام بن الخطاب تابوتا لجمع صكوكه ومعاهداته الأممية وكتاب على بن أبي طالب رضي الله عنه أنه ألف كتابا في سائر العلوم قال عنه بن سيرين. لو ظفرت بذلك الكتاب ظفرت بالعلم كله. و إستمر الوضع لما هو عليه من تحرج المسلمين من كتابه شيء سوى القرآن طوال القرن الأول للهجرة.

ب- مرحلة العصر الأموي :

في زمن الدولة الأموية صارت للخليفة معاوية بن أبي سفيان بالشام مكتبة بها خدم وأعوان وكذلك في عهد خالد ابن يزيد الذي يعده كثير من الباحثين أول من حملت له الكتب و جعلها في خزانة الإسلام. معاوية كان يستمر إلى ثلث الليل في قراءة أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسير الأمم والملوك وحروبها ومكايدها وغير ذلك من أخبار الأمم السابقة ثم ينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد، فيحضر له الدفاتر فيها سير الملوك فيقرأ ذلك عليه من غلمان قد وكلوا حفظها. أمّا والده يزيد فهو من رواد التنوير العلمي الإسلامي فهو أول من أمر بترجمة كتب الطب والكمياء ، وليس هذا فحسب إنما كان شاعرا خطيبا فصيحا و الف العديد من الكتب في الكمياء(علم الصنعة) فقد الف : كتاب الحرارات وكتاب الصحيفة والكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصية إلى إبنه في الصنعة. وفي خلافة عمر بن عبد العزيز فتح الباب على مصراعيه أمام حركة تدوين العلوم عند العرب خاصة بعد تدوين الحديث.

ج- مرحلة العصر العباسي :

يمكن القول أن معظم أنواع المكتبات التي نعرفها اليوم عرفتها الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي ، عصر الإبداع والنضج في الحضارة الإسلامية ، ففي هذا العصر إزدهرت وتطورت نسبة عوامل متمثلة في :

- إزدهار حركة التأليف والترجمة .
- إنتشار صناعة الورق في بغداد والبلاد الأخرى .
- ظهور حركة الوراقين وهم أصحاب الحوانيت والدكاكين التي كانت تنسخ وتبيع وتؤجر الكتب .
- تشجيع الخلفاء والحكام المسلمين للعلم والعلماء.

2. أنواع المكتبات في الحضارة الإسلامية:

- **مكتبات القصور أو مكتبات الخلفاء :**

هي المكتبات التي أنشأها الخلفاء و الأمراء ، فقد إهتموا بالجانب الثقافي إهتماماً كبيراً ، وجعلوها حلقات المناظرة والمحاضرات والعلوم المختلفة. فيذكر المسعودي أن الخليفة الواثق كان مجلسه بها بحضرة كبار الأطباء والفلاسفة ويسمى مجلس الواثق في الفلسفة والطب. و إزدهرت هذه المكتبات بوجود الخليفة أو الأمير وهي للعلم والراغب في الكتاب وأهله ، بعض هذه المكتبات كان متاحاً للناس جميعاً والبعض الأخر كان مقصوراً على الخليفة أو الأمير وحاشيته.

ومن مكتبات الخلفاء في العهد الأموي نذكر أنه كان للوليد بن عبد الملك(ت96هـ/714م) مكتبة بها كتب وناسخ وكان لكل منهما لقب يذكر النديم واحداً منهم إسمه سعد لقب بالمصاحفي كان يكتب للخليفة المصاحف والشعر والأخبار. وكانت للوليد الثاني (ت 125هـ/742م) مكتبة يذكر أنه بعد وفاته حملت الدفاتر التي كانت تحويها على دواب عديدة وفي العهد العباسي كان للمنصور مكتبة أودع فيها كتب عديدة منها كتاب في التاريخ أمر أن يؤلف لإبنه المهدي منذ أدم عليه السلام حتى زمن المنصور ولشدة حرص المنصور في إختيار الكتب فقد كتب لملك الروم أن يبعث إليه بكتب العلوم لترقيتها فبعث إليه بكتاب إقليدس وبعض كتب الطبقات. كما ان الخليفة الناصر إهتم بالمكتبة وأسس رباطه الشهير المعروف بالرباط الضاوي ونقل إليه آلاف الكتب النصية كما عرف بأنه كان يصنف الكتب.

- **مكتبات المساجد :**

هذا النوع من المكتبات قديم النشأة في الإسلام ولا ندري بالضبط متى أنشئت مكتبات المساجد ، أغلب الظن أن العادة جرت أن يودع الناس في المساجد عدداً من نسخ القرآن الكريم وغيره من كتب السنة الدينية النافعة لفائدة المصلين والمطالعين وذلك في أقدم عصر الإسلام ، أي أن مكتبة المسجد ظهرت منذ أن إتخذ المسلمون المسجد مكاناً للدراسة ذلك أنه لا دراسة بلا كتب. كما إنتشرت ظاهرة ساهمت في إزدهار مكتبات المساجد وهي ما إعتاد عليه كذلك الخلفاء والعلماء والأثرياء فيذكر أن الحاكم بأمر الله القاضي قد أنزل إلى الجامع العتيق ألفاً ومائتين وثمانية وسبعون مصحفاً فيها ما هو مكتوب بالذهب كله ومكن الناس من القراءة.

ومن المساجد التي كانت تحوي مكتبات نجد مساجد الكوفة مثل المسجد الجامع الشهير ومسجد السهلة ومسجد الباقية ومسجد الحمراء التي كانت تعقد بها الحلقات العلمية للدرس والمناظرة والوعظ والمحاضرات. كما قام الخليفة المستنصر بالله العباسي أوائل القرن السابع للهجرة ببناء مسجد عرف بالقمرية وألحق به مكتبة حمل إليها كتباً كبيرة. كما أن المستنصرية كانت مليئة بالمساجد الملحقة بها خزائن الكتب فبذكر بن طباطبا في وصفها ويقول "مدينة المستنصرية أعظم من أن توصف وشهرتها تغني عن وصفها ومنها خان حربي وقنطرتها وغير ذلك من المساجد والربط ودور الضياف".

- **المكتبات الخاصة :**

هذا النوع من المكتبات أسسه الأفراد بأموالهم الخاصة لأجل فائدتهم ، وكان واسع الإنتشار في العالم الإسلامي فقد فاق في بعض الأحيان باقي أنواع المكتبات وذلك لإنتشار العلم وحب الإطلاع لدى المسلمين ، فنجد الوزراء والعلماء والأغنياء والفقراء كلهم حرصوا على أن يكون لهم مكتبات خاصة تظم مختلف الكتب في شتى العلوم. نذكر منها :

- ✓ **مكتبة الفتح بن خافان :** وهو وزير الخليفة العباسي المتوكل وقبل معه . كانت له مكتبة لم ير أعظم منها كثرة وحسنا وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفيين والبصريين ، وكان الفتح قد عهد الى تكوينها إلى ألمع علماء عصره فكراً وأدباً وهو يحي بن ابي المنصور المعروف بالمنجم و يذكر أن الفتح من شدة ولعه بالكتب كان يحضر لمجالسة المتوكل وإذا قام لقضاء حاجته أخرج كتاباً في كمه وقرأه حتى رجوعه لمجلس المتوكل و أرجع الكتاب لمكانه.
- ✓ **مكتبة حين بن إسحاق** : يذكر النديم أنه كان فاضلاً في الطب وكان يهوى الشعر في البحث عن الكتب و انه وصل إلى بلاد الروم في جمعها له مؤلفات منها :أحكام الأعراب على مذاهب اليونانيين ، كتاب المسائل في الطب للمعلمين ، كتاب الحمام ، كتاب اللبن ، كتاب الأغذية.

كما أن حنين كان يتقن اليونانية والسريانية والعربية والفارسية فقد كان مترجماً بارعاً وهذا ما جعله مكتبته الضخمة تزخر بثروة وفيرة جداً من الكتب التي ترجمها إلى العربية.

- **المكتبات العامة :**

هي المكتبات التي أسسها الخلفاء والملوك والولاة في المدن والعواصم العربية. كما تشمل المكتبات الخاصة التي يوقفها أصحابها بعد موتهم لتصبح مكتبات عامة. فيذكر الحموي أنه بمدينة مور بخراسان عشر خزائن للوقف لم يرى في الدنيا مثلها كثرة وجودة منها خزانة العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبوبكر عتيق وكانت هذه الخزانة تحوي إثنا عشر ألف مجلد.

وكانت المكتبات العامة من أهم المؤسسات الثقافية والإجتماعية التي يفخر بها الإسلام وهي المقياس الحقيقي لرقي الشعوب والأمم. وكانت عامة بالمعنى الحرفي والدقيق للكلمة فلم يمنع أحد من إرتيادها وكان دخولها والمطالعة بها يتم بالمجان وكثيراً ما كانت تقدم الورق والحبر مجاناً لروادها.

وتعد مكتبة بيت الحكمة ببغداد أول مكتبة عامة. يذكر أنها شيدت سنة (214هـ/830م) وهي عبارة عن خزانة كتب ودار علم ومكتبة ترجمة ، هذه المكتبة هي أول مكتبة عامة – أكاديمية في الإسلام، بل في العصور الوسطى قاطبة. أنشاها الخليفة هارون الرشيد (170–193)هـ ورعاها ابنه المأمون (198–218)هـ من بعده رعاية كبيرة. وتذك المصادر التاريخية انه نقل إليها من القسطنطينية حمولة مئة جمل من الكتب تنفيذا لمعاهدة الصلح التي وقعها مع الروم البيزنطيين، وأمر بترجمة الكتب الهامة منها إلى العربية. وقد أصبحت هذه المكتبة بهذه العناية أكبر خزائن العباسيين، وقد حفلت هذه المكتبة بمجموعات كبيرة من كتل العلوم وآداب والفنون وغيرها إضافة إلى كتب التراث. وقد أفردت فيها قاعات للمطالعة، وأخرى للمناظرة، وغيرها للنقل والترجمة، والنسخ، والتجليد. بقيت هذه المكتبة في نشاطها المعرفي، العلمي والأدبي، حتى استيلاء المغول على بغداد، الذين دمروا هذا المشعل العلمي الساطع، وألقوا بعشرات الآلاف من مجلداتها في نهري دجلة والفرات، ليصنعوا منها جسورا لعبور جيادهم.

قائمة المراجع :

- الجبوري، يحيى وهيب، الخط و الكتابة في الحضارة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994.
- حسن، حسن رشاد، المكتبات و رسالتها، مطبعة المعارف، القاهرة، 1996.
- الحلوجي، عبد الستار، دراسات في الكتب و المكتبات، مكتبة مصباح، جدة، 1988.
- الخطيب، محمد عجاج، لمحات في المكتبة و البحث و المصادر، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993.
- خليفة، شعبان عبد العزيز، الكتب و المكتبات في العصور الوسطى– الشرق المسلم و الشرق الأقصى–، ط2، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2001.
- عطاء الله، خضر أحمد، بيت الحكمة في عصر العباسيين، دار الفكر العربي، القاهرة.
- عليان، ربحي مصطفى، همشري عمر أحمد، أساسيات علم المكتبات و التوثيق و المعلومات، مطابع جريدة الأسواق، الأردن، 1988.
- عليان، ربحي مصطفى، المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، دار الصفاء للنشر و التوزيع، عمان، 1991.
- سبيتشفتش، ألكسندر، تاريخ الكتاب، ترجمة: محمد الأرناؤوط، ج1، عالم المعرفة، الكويت، 1993.
- هيسيل، ألفريد، تاريخ المكتبات، ترجمة: شعبان عبد العزيز خليفة، المكتبة الأكادمية، القاهرة، 1993.